ومع ذلك فإن أي ... أيضا غير كثيرة، أن مشكلة الله ليست فقط واحدة من أهم المشكلات التى تعالجها الفلسفة، بل هى أيضا من أطرف المشكلات وأكثرها إثارة للفكر. ومن المألوف أن يتبين الطلاب أن الخشوع الذى ضاع من تصور الألوهية قد عوض بمزيد من الاهتمام والإثارة العقلية. ولو كان من حسن حظهم أن يصلوا إلى هذا الكشف، لصبحوا إلى هذا الحد فلاسفة.

❁ ❁ ❁

مشكلة حرية الانسان

هناك مشكلة ثالثة تقترن بمشكلتى الله والخلود، هى مشكلة حرية الإرادة. ولقد كان من أهم التغيرات العقلية التى أسفر عنها توسيع نطاق وجهة النظر العلمية، تضاؤل مجالات تجربتنا التى لا تسودها الحتمية الدقيقة. فقد كان الناس فى الأصل ينظرون إلى الطبيعة كلها (والطبيعة البشرية بالطبع) على أنها خارجة أساساً عن القانون. فالذهن البدائى كان يرى أنه إذا تدحرجت صخرة على جانب تل، فذلك لأن للصخرة إرادة خاصة بها، يمكن أن تمارس باختيار. أى ان الذهن البدائى كان ينقل حرية الاختيار والحركة التى يستشعرها الإنسان فى نفسه بوضوح، إلى كل الأشياء والمخلوقات. فلكل منها إرادة مستقلة، يمارسها بحرية. على أن هذه النظرية الساذجة قد استبعدت، فى معظم أرجاء العالم، بعد أن عرفنا أن الأشياء المادية العادية تخضع لقوانين آلية، على الرغم من أننا لسنا موقنين بعد بماهية هذه القوانين أو طريقة سيرها.

والحق أن نمو العلم قد أحدث تغيرا عميقا فى طريقة تفكيرنا؛ فقد تمكن جاليليو ورفاقه فى العمل من صياغة هذه المعرفة المبسطة للواقع الآلى فى صورة قوانين لا يتطرق إليها الشك. وفضلا عن ذلك، فقد تبين أن هذه القوانين لا تقبل أى استثناء، وتنطوى على تعاقب دقيق للعلة والمعلول. ومنذ ذلك الحين، أصبح القانون والنظام العلمى يبسط سيطرته على عملية طبيعية بعد الأخرى. وامتدت حدود العالم الخاضع للعلم، من مجال الأجسام المادية، إلى عالم الحياة الحيوانية، ولم يعد أحد يسلم مقدما بأن وجود القدرة على الفعل الحركى يبطل المبدأ الأساسى القائل أن كل تغير ينتج عن تغيرات سابقة من نوع ما — أى أن كل حادث يتحدد بسبب، ويؤدى إلى نتيجة مناظرة له.

ولكن على الرغم من الزحف المتصل للقانون العلمى، فقد كان هناك مجال عظيم الأهمية، هو مجال الحياة البشرية، يعد حتى عهد قريب بمنأى عن أى تطبيق كامل لمبدأ الحتمية هذا.

يشيع فى الوجود الاضطراب والانقسام والشر والقلق والعدم ... إلخ ؟

لقد قيل عن الإنسان — بحق — إنه « الموجود المشكل » L'être problématique بأعلى درجات الإشكال ، فليس بدعاً أن تقودنا كل التأملات الفلسفية إلى التساؤل عن سر ذلك المخلوق العجيب الذى لا هو بملك ولا هو بشيطان ، ولا هو بإله ولا هو بحيوان !

« مشكلة الإنسان » ! إنها مشكلة ذلك الموجود الضعيف الذى يحمل أضخم مشكلة ؛ ألا وهى « مشكلة الحقيقة » ... فليس فى استطاعة الإنسان أن يحيا دون أن يسائل الطبيعة عما تخفى من معان ، وليس فى استطاعة الفيلسوف أن يقنع بصورة العالم على نحو ما تقدمها له الحواس ؛ ذلك العالم المسطح flat الذى ليس فيه ارتفاع ولا عمق !

« مشكلة الإنسان » ! ألا تتضمن كلمة « المشكلة » معانى البعد أو البون أو المسافة distance ؟ فكيف لا يكون الإنسان مشكلة ، وهو الكائن الذى يجد نفسه دائما على مبعدة من ذاته ، فيعدو دائماً وراء ذاته ، وينشد نفسه دائماً دون أن يجدها يوماً ؟!

إن الإنسان مشكلة ، لأنه — بين الموجودات جميعاً — أكثرها شقاء ، وأعمقها ألماً ، وأرهفها حساسية . وربما كان السر فى شقاء الذات البشرية هو أنها لا تستطيع مطلقاً أن تبلغ مرحلة الاتزان المطلق ، أو التطابق التام مع الذات ، فهى تظل تنشد حالة « امتلاك الذات » ، دون أن تقوى يوماً على بلوغ تلك الحالة المنيعة المستحيلة التى هى أشبه ما تكون بالدائرة المربعة !

إن الإنسان مشكلة ، لا لأنه أعجب « موضوع » بين موضوعات الطبيعة ، بل لأنه ليس على الإطلاق مجرد « موضوع » نستطيع أن نعرفه « من الخارج » على نحو ما نعرف غيره من الموضوعات ، وإنما هو الموجود الوحيد الذى نعرفه ونصنعه فى الوقت نفسه « من الداخل » !

إن الإنسان مشكلة ، لأنه الموجود الذى لا يكاد يعرف مكانه فى الطبيعة ، فهو ينظر ، ويتأمل ، ويبحث ، ويتردد ، ويتعثر ؛ ولكنه لا يكاد يعثر لوجوده على قرار طبيعى يطمئن إليه ! إنه فى الطبيعة ، ولكنه ليس من الطبيعة ، إنه فى العالم ، ولكنه ليس من العالم ! إنه